إمكانية وجود علم للكتابة:

يرى «ديريدا» أن «الغراماطولوجيا» ممكنة كعلم، شريطة معرفة ماهية الكتابة وحل التعدد المفهومي للكلمة، هي أيضاً ممكنة كعلم، في الوقت الذي نعرف فيه أين تبدأ الكتابة، ومتى وأين يتقلص «الأثر» الذي يعتبر الجذر المشترك للكلام والكتابة إلى كتابة بالمعنى الشائع؟ أين ومتى نعبر من كتابة إلى أخرى، من الكتابة بالمفهوم الواسع، إلى الكتابة بالمفهوم الضيق، من الأثر إلى الوحدة الخطية، ثم من نظام خطي إلى آخر..؟[32].

هذه الأسئلة يراها «ديريدا» أسئلة حول الأصل، في حين لا أصل يوجد في الواقع لديه ـ بمعنى الأصل البسيط ـ كما أن الأسئلة حول الأصول تنقل معها ميتافيزيقا الحضور، لهذا يرى ديريدا أن الإجابة عن السؤال أين ومتى هو من اختصاص البحث التاريخي الذي اضطلع بإنجازه حتى الآن، الأركيولوجيون وعلماء النقوشات (Épigraphes) الذين ساءلوا كتابات العالم. كما أن التساؤل حول الأصل يختلط بدءاً بموضوع الجوهر، إذ يجب علينا أن نعرف ماهية الكتابة حتى نتساءل عن أصولها ونحن على علم بما نتحدث عنه، كما أن كون الكتابة تاريخية سيجعل من الطبيعي والغريب في نفس الوقت أن يكون كل اهتمام علمي بالكتابة دائماً في صورة تاريخ، ولكن العلم يستوجب وجود نظرية للكتابة، تأتي لتوجه الوصف الخالص للوقائع[33].

العلم المقترح هو «الغراماطولوجيا» التي لن تكون اللسانيات الفونولوجية فيها إلا مجرد منطقة محدودة وتابعة. وهذا العلم لن يكون وصفياً، كما أن الكتابة ـ التي صارت المفهوم الأكثر عمومية للسيميولوجيا ـ لا يمكن أن تصير مفهوماً علمياً، وهذا لا لغياب الدقة والصرامة ولكن لأن موضوعية الموضوع وحقيقة ما أعرف عنه اللذين هما شرطا كل علم، ينتميان مثلهما مثل الهوية، والكينونة، والأصل والبساطة، والوعي، إلى أشكال الحضور التي يزعزعها «الأثر» ضرورة. ففكرة «الأثر» لا يمكن أن تذوب في فكرة اللغة بعد أن تكونت هذه الأخيرة كقمع للكتابة وتهميش لها. لهذا «فالغراماطولوجيا» مدعوة إلى هدم كل الأحكام القبلية للسانيات، لا بزعزعتها، ولكن بالعودة إلى جذورها.

يقدم «ديريدا» أسس علم الكتابة تحت اسم استعاره من «جلب» ويبقى أهم ما قدمه، وهو يطرق هذا العلم الجديد، هو نقده الهدمي الصارم للطروحات السوسيرية التي وجهت البحث اللغوي، بعيداً عن الصنف المكتوب من الأدلة اللغوية.

يلزمنا هنا أن نشير إلى أن ديريدا، وهو يصوغ مقدمات وشروط العلم الجديد، كان يلح على الخصوصية المطلقة لموضوعه الذي هو الدال الخطي دون أن يلتفت إلى أن الكتابة تكون

(32) المرجع نفسه، ص ص 98 - 99، وتعليقات تودوروف في معجمه، م. م، ص 436.
(33) ديريدا، م. م، ص 109.